مدن العراق القديمة

Les vieilles Cités de l'Irâq.

اذا جاء احد ابناء لغتنا يزور هذه الديار المباركة ، فانه لايجد كتاباً عربياً يقفه على مدنه القديمة ، فيضطر اذا كان من عارفي اللغة الانكليزية الى مطالعة كتاب من كتبها ، وقد وضعت احدى سيدات الانكليز واسمها دورتي مكي كتيباً اودعته كل مايجب ان يعرفه زائر هذه الديار القديمة بعبارة موجزة ، فآثرنا نقله الى لغتنا لينتفع به من يجهل تلك اللغة ، وقد طلبنا الى الاديب فنسان افندي م . ماريني ان ينقله الى لساننا ، فلبى طلبنا . ودونك هذه الترجمة مبتدئين باول صفحة منه (ل. ع)

المقدمة

تختلف ارض الرافدين كل الاختلاف عن مصر والارض المقدسة (فلسطين) ، اذ يرى سهل العراق المنبسط غاية الانبساط ، اشهب اللون ، كثير التراب ، ذيالك السهل الذي يتطلب وحياً وخيالا ليستحسن مافيه . كل ذلك بعد القفار الصخرة والضفاف الشاهقة التي تكتنف وادي النيل فضلا عن كثبان ارض اليهودية والجليل ومآب الحجرة وجبال لبنان الشاهقة المكسوة اشجاراً .

ولكن لايدوم تأثير النظرة الاولى ، ولو كان الناظر ذا خيال واعاد في مخيلته تلك الاراضي الغريبة كما كانت — ولعلها ترجع يوماً الى قديم شأنها — لشعر في اللحظة بخفي جاذبيتها وعجيب مزاياها .

ولعمر الحق انها لجديرة باسم مهد البشر . لان سكان تلك الاصقاع كانوا منذ ثلاثة آلاف سنة قبل تاريخنا هذا (التاريخ المسيحي) في حالة من التمدن ، لم يصل اليها الانسان إلا بعد الوف السنين — لا بعد مئات من السنين — من الجد والاختراع ، والفكر والعمل ، وتطور الحكم والنظام . ويرى الى هذا الحين ذاك السهل القفر محفوراً كله حفراً كانها الشباك وهي كل مابقي من نظام الري ، ذاك النظام الذي كان على جانب من الفخامة ، ويحق لمهندسه ان يحمد عليه بل ويحمده عليه مهندس هذا الزمن ، وكانت تسقي تلك القنى مزارع عظيمة جعلت هذه الديار مخزن غلة الشرق . ولنعد الى خيالنا ايضاً الحدائق والجنات المحيطة

بالقرى والضياع التي ترى اخربتها في كل جانب — وترى الآن روابٍ منخفضة غير منتظمة مبعثراً فوقها عدد لايحصى من الشقف والآجر وبعض الخرز والاختام الاسطوانية . وترى احياناً سكاكين الصوان أو قطع من الرقم المسمارية. وكان هناك بلدان عظام ممنطقة باسوار هائلة يمكن اقتفاء اثرها الى هذا اليوم. وحكمت كل بلدة في حينها هذه الاراضي . وفي بعض الاوقات اصبحت سيدة العالم المتمدن باسره ، وكانت تلك العواصم غنية جداً لانها موئل التجارة ، فضلا عن انها مركز الدين والسياسة وكعبة العلماء والفلاسفة .

وغزا هلاكو وقومه المغول هذه الاراضي قبل بضعة قرون غزوة كادت تقضي على الديار جميعها ، لانهم هدموا القنى فتزعزع دعائم المملكة ، واصبح العراق منذ ذاك الحين، يباباً وخراباً ثم استأنف المغول سيرهم ، ولكن قبل ان تتماثل هذه الديار من تلك الضربة، هجم عليها تيمورلنك القهار فاتم خراب ما فات يد هلاكو . وبقي العراق على تلك الحالة، لان الترك لم يقوموا بعمل يذكر في اثناء سيادتهم ليرجعوا البلاد الى سابق عمرانها .

ولم يذكر في هذا الكتيب خلاصة تاريخ ارض الرافدين، وان كان ذلك بصورة عامة . اذ لايمكن في اي مختصر كان، بيان عصور هذه الربوع بصورة صحيحة ، اذ اقوامها عديدة وتقلباتها غريبة . ولما كان فيها من الاديان والنحل ما اجتمع منها كتلة نشأ منها كل ما في العراق من المزايا المتنوعة . وفي آخر هذا الكتيب جدول اهم الازمنة مع تواريخها من باب التقريب وقد نقلتها من مؤلفات كنبريج للتاريخ القديم . واني لاعترف بفضل مؤلفيها . ويطلب الى القارئ ان يراجع ذلك الجدول حين يتصفح المذكرات المختصرة المختصة بالمواقع التاريخية المتعددة التي يزورها . والملحق الحاوي اسماء الكتب يعين الزائر كل الاعانة ويضيف الى مايعرفه من الامم والازمنة والاماكن التي يجب الوقوف عليها اكثر من سواها .

وقد اصطلحت في تأليفي هذا «الدليل» على وضعين : الاول ، تدل الكلمة « قديم » على زمان الجاهلية وعليه لم اذكر البلدان المقدسة أو البلدان التي فيها من ابنية المسلمين المهمة سواء أكانت دينية أم غير دينية . الثاني : لم اذكر

التنبيهات للوصول الى المواقع التي لها شأن في الآثار القديمة اللهم إلا اذا كان يتسنى السفر اليها أو اذا حفر في تلك الاماكن، فتأتي ابنيتها الزائر بفائدة .

والنظام في وصف المواقع القديمة موافق نظام دائرة القطار . لان المواقع التي تقصد زيارتها تقرب من محطات القطار ويسهل الوصول اليها إلا البعض منها . وتعرض دائرة قطار العراق تسهيلات خاصة على جماعات الزوار . وفي محطة الحلة ومحطة اور ترى دور للاستراحة يتاح لمن يرغب في النوم والغداء فيها باسعار معقولة .

وبعد مشاهدة الاماكن التي فيها من الآثار القديمة التي تقرب من بغداد ، يحسن بالزائر ان يجول في اطراف بابل وذلك بعد ان يحط رحاله في كل محطة وهو راكب القطار القاصد الى البصرة . وعندما تتم تلك السياحة ، يعود الى بغداد ، ومن ثم يطوف في مدن أشورية على حد ما عمل في رحلته السابقة .

وبالتالي اود ان اعبر عن مزيد شكري للبعثتين : البعثة اور التي اشتركت في اقامتها المتحفة البريطانية ومتحفة فيلادلفية . والبعثة كيش المشترك في اقامتها « اجوولد » (لاتسفورد) ومتحفة « ميدان شيكاغو » ، وذلك لسماحها اياي استعمالي التصويرات ، واني لاقر ايضاً بفضل بعثة كيش لاني استفدت من خريطتها لذلك الموقع التي صورت من الجو . ونظمت خريطتي لكيش من تلك الخريطة واما خريطة أشورية وخريطة اراضي بابل ورسم بابل فنقلتها عن التاريخ القديم لكنبريج وعن المفكرة الرسمية الدالة على اخربة بابل . فاعترف بفضلهما ايضا .

د . م

الفوائد التي يستفيدها من يقصد الزيارة

اقترح لراحة من ينوي زيارة العراق ما يلي :

١ — ان احسن موسم يذهب فيه الى العراق هو الموسم الذي يبتدىء من نصف تشرين الاول (اكتوبر) الى نصف كانون الاول (ديسمبر) ومن نصف شباط الى نصف نيسان . وفي غير تينك المدتين تهبط الامطار بغزارة فتصبح تربة تلك الاصقاع الغريلية كثيرة اللزوجة بعد ان تمتزج بالماء . ويصادف في الاغلب برد زمهرير في الليل .

٢ ــ ومن الامور الضرورية للمسافر ان تكون معه حقيبة وخدة وبسط ثم فراش خفيف يسهل رزمه . ومن لا يعرف احداً من اهل البلاد في المواقع المنفصلة لايحصل على غير الخانات وغرف الانتظار في محطات القطار . واذا عرف احداً يخشى ان تضيق كثرة الزوار النازلين في موطن واحد ذلك الموطن الذي اصبح ملجأ له ، مع ان الضيافة التي يتلقاها المسافر من سكان العراق سواء أكانوا عرباً أم اوربيين تفوق الاطراء . والحقيبة كثيراً ماتزيد في راحة راكب القطار ، لان السفر فيه طويل ولابد من ان يكون قليل السرعة .

٣ ــ ويرجح استعمال صندوق خفيف للثياب عوضاً عن الصندوق الكبير الثقيل ، ولا سيما من يقطع الطريق براً الى بغداد ، ليتسنى وضع ذلك الصندوق الصغير على جانبي السيارة .

٤ ــ ومن الضروري لبس ملابس مدفئة في السفر بالسيارة ، لان تبتدئ الرحلة في اكثر الاحيان فجراً ، والهواء وقتئذ يكون في الغالب بارداً قارساً ، حتى في اشهر القيظ . وعلى من يكون معه اوراق توصية تعرفه بالكليز في بغداد ، ان يأخذ معه ملابس الليل الرسمية .

٥ ــ ويجدر بالسائحان يتخذ لنفسه كمية قليلة من العقاقير التالية : الكينة والاسبرين والكلوروودين والحامض البورقي وبوتاس البرمنكنات ، وتفيد الكلة (الناموسية) في بعض الاحيان .

٦ ــ لاتفيد العدة الزائدة بل ربما تصبح حملا ثقيلا تعيق المسافر ، عوضاً من ان تعينه ، اللهم إلا اذا كان في نيته السكنى في الخيم .

٧ ــ وتتخذ دائرة قطار العراق مايلزم لراحة جماعات الزوار ، وتعد لهم عربات بفرش للنوم ، وتفصل تلك العربات عن خط القطار ، مدة يوم أو اكثر في محطة كانت اذا طلب اليها ذلك .

توطئة

لايمكن للانسان في عصرنا هذا عصر الجد والعمل ان يطلع على شؤون الاقدمين اليومية ، وهم قوم من اصقاع شاسعة . اللهم إلا الخبير المتخصص لذلك الموضوع . واذا قابلنا ما كان يتعلق بأمر ملجأهم والمشاكل في العثور على المواد

لبناء منازلهم. فالنسبة بين كل ذلك وبين ما نحتاج اليه من لوازم هذا الزمن الضرورية تكون زهيدة جداً . ولا يمكن للمرء ان يفكر ملياً في اسلوب البابليين في سقي حقولهم، أو في كيفية قيامهم بحروبهم التافهة، بالنسبة الى ما شاهدناه في هذه الايام، ايام الحرب العظمى . ولكن اذا راجعنا بعض المعلومات المختصة بحياة الاقدمين اليومية ومشاكلهم، يزداد حبنا للاطلاع على مدنهم المنقرضة . فأتوقع ان ما يأتي في هذا التأليف الصغير المجمل لحقائق التاريخية ، يفيد بعض الفائدة كثيرين من اولئك الذين لا يساعدهم وقتهم على المطالعة.

اللبن وتزيينه

إن أرض العراق الادنى الممتدة من بغداد الى البحر سهل عظيم متقوم من التربة الغرينية التي يأتي بها الرافدان الكبيران وانك لا ترى تلا ولا صخراً في هذا المنبسط الفسيح . ولعدم وجود الحجر في هذه الديار، اضطر المعمار في كل عصر، حتى في هذا الزمن، ان يعتمد على اللبن ليشيد الجدران . واما السقوف فيتخذها من اغصان الشجر والحصير والتراب . ويبس اللبن الخشن الصنعة في حرارة القيظ بسرعة . ويتصلب تصلباً كافياً . وكان الاقدمون يشيدون معظم بيوتهم وقصورهم ومساجدهم وزقوراتهم (مفاتيلهم) بهذه المادة . وكانوا يجعلون الآجر في الاغلب على وجوه الجدران المتخذة من اللبن وذلك لتكون اثبت . وقد عثر على أخربة الاتانين في اثناء الحفريات . ولا شك في ان اصحاب دانيال الثلاثة شدراخ وميشاخ وعبدنغو القوا في اتون من تلك الاتانين (دانيال الفصل الثالث الآية ٢٠) .

وكان لحب الطرز تأثير في شكل الآجر . كما انه يؤثر في سائر الاشياء . وهذه الحقيقة هي العون الاكبر لمستكشفي الآثار القديمة في تفسير مشكلات التاريخ القديم . وعم الاعتقاد الى هذا الحين ان صانعي الآجر الاقدمين في العراق رجحوا طرز الآجر المسمى «المسطح المقبب» على سواه (١) ويعمل ذلك في لبن مستطيل من خشب يملا صاصالا معجوناً ويعدل ما يبرز منه بعض الصقل . ولكن الحفريات الحديثة دلت على ما يرجح الظن ان في الايام السالفة نفسها كان يصنع الآجر الثخين القائم الزوايا .

١) اي المسطح اسفله والمقبب اعلاه ويعرف بالمسنم ايضاً .

وترى في الآجر المسطح المقبب في اغلب الاحيان اشارة خاصة ، لبناً كان ام آجراً . وتكون تلك الاشارة بالابهام أو بالاصابع واحياناً بالعصا . وربما كان هذا الوسم، وسم الصانع، يدل على مأخذ آجره .

ثم أخذ الآجر المسطح المقبب بمرور الزمان يفلطح ويخفف فظهر في عهد سرجون الاول ان حدث انقلاب سياسي مع انقلاب في تكييف الآجر ، وصنع الآجر منذ ذلك الحين على شكل مفرطح مربع . ويتضح ان سرجون — وكان رجلا طموحاً — يفضل الضخامة في كل شيء ، والآجر والخواتم الاسطوانية الشكل التي صنعت في عهده هي من اكبر ماترى في تاريخ العراق القديم. ويظهر ان الآجر «المسطح المقبب» لم يصنع في العهد الذي عقب دور حكم السامين في تلك الاصقاع ، بل حل محل هذا النوع من الآجر صنف آخر، هو مربع او مستطيل على اختلاف الاقيسة ، واصغر من آجر سرجون . كما ان الرقيم المسماري حل محل وسوم الابهام او الاصبع التي كانت ترى في اول زمن الشمريين . ويذكر ذلك الرقيم في الاغلب ما قام به بعض الملوك من عمل ديني في تشييد مسجد الهة أو تعميره ، ويرى في رقيم الآجر المسماري ما يثني على اعمال نبوكدراسر الثاني (بخت نصر) في كل مدينة تقريباً من مدن سهل بابل.

إن الطبيعة البشرية الناشئة في ارض كارض العراق الزاهية بالوان متناسبة، تأنف من تلقاء نفسها من لون الطين الغامق وهو ما يرى دائماً . والكاشي الملون بازرق واخضر الزاهيين، ذلك الكاشي الذي تزخرف به المساجد في هذا العصر، يشهد جميعها بحب البهاء ، ومثل ذلك قل عن الصبغ الاصفر الفاقع والازرق البديع الفاتح اللذين يصبغ بهما معظم دور بغداد . كما ان في القدم كان لون الطين يبدل بما يحسنه لكي ينفي عن النفس وحدة لونه وذلك بلباقة في الفن ربما تفوق ما يجري في هذا الزمان . وعثرت البعثتان، بعثة كيش وبعثة اور، على قطع بديعة مركبة بالصدف والمحار ؛ ومن اعجب مصنوعات الفن افريز الثيران المصنوع من النحاس الاحمر البارز الذي كشف في تل العبيد . ويظهر ان في الازمنة التي عقبت ذلك العصر، حل الآجر المدهون بالطلاء محل المصنوعات المرصعة . ولا يزال باب اشتر في بابل يدهش الناظر مع انه مجرد من كل زليج

(كاشي) وكان هذا الباب في ابان عصره يتألق بالوانه الزاهية .

واما قطعة الاراضي الواقعة فوق بغداد ، تلك القطعة التي تقابل مملكة الاشوريين القديمة، فهي اسعد حظاً من سهل شنعار المنبسط ، اذ انها تحتوي على الحجر للبناء به ، ولاسيما ذلك الحجر المعروف « بمرمر الموصل » . وعليه كان البناؤون الاشوريون يشيدون مساجدهم وقصورهم فوق مساطب عظيمة وجهها حجري ، وكانوا يزينون جدران قصورهم الهائلة المتخذة من اللبن بالواح المرمر ويحفرون تلك الالواح حفراً واصفين فيها مآثر الملك في الحرب والقنص .

الروابي ومعناها

لما سقطت المدن القديمة وانقرض سكانها بالحرب ، أم بسبب آخر، خربت قصورهم ومساجدهم ومنازلهم خراباً سريعاً ، اذ كانت تلك الابنية مسقفة بالخشب وجدرانها من لبن وربما هدمت قصداً ، ونزع الآجر منها فحمل ليعمر به بلدان جديدة . وبالحقيقة، اصبحت بابل لاهل الحلة وبغداد « منجم آجر » بحيث يرى في حيطان كثير من بيوت هاتين المدينتين الرقيم المسماري من عهد نبوكدراسر ، ويحصل الكاس من احراق الواح المرمر المحفورة ، من زمان الاشوريين ، وقد ربح قرويو منطقة الموصل بهذه الوسيلة ربحاً طائلا .

وما بقي تم خرابه بالحر والبرد والمطر والريح وعواصف التراب الشديدة، وبليت اقسام الجدران العليا التي لم تزل قائمة ، وملىء تراباً كل شق وذلك رويداً رويداً ، كما حدث في الابنية التي حفرت مؤخراً . ولم يبق الآن من الابنية الشامخة شيء سوى روابٍ كبيرة واطئة وهي تنخفض ويتساوى اسفلها بمرور الزمان .

ولا يظهر اي اختلاف لمن ينظر الى تلك الآكام من باب الاتفاق، سواء أكانت اثر مدينة ام بلد ام قرية، اذ لا يرى فرق إلا في اتساعها ، بيد ان الباحث عن الآثار القديمة التي يزورها ، تتجلى له القصة بكل وضوح لما فوق وجه هذه الآكام من مواد مبعثرة ، ولا سيما حوالي حاشيتها ، وتظهر تلك الاشياء اما بعد امطار الشتاء ،واما بعد تذرية الريح التراب . وتدل قطع الادوات المصنوعة من حجر الصوان او مناجل الظران على عهد قديم ، وكذلك كسر الجرار المدهونة والآجر المسطح المقبب . وتشهد شقف لوح الرقيم أو الخواتم الاسطوانية

على عصر احدث . ويظهر ذلك ايضاً من الآجر المستطيل المسطح وكسر الجرار غير المصبوغة المصنوعة من خزف اثخن واخشن ؛ واما الآجر المطلي بدهان اخضر او ازرق ، والزجاج المصبوغ بالوان قوس قزح فيشهدان على احتلال الفرثيين أو الفرس .

وتأخذ المدينة المبنية باللبن بالخراب على الدوام ولو كانت آهلة بسكانها . وكانت العادة كما هي الآن اذا سقطت دار من الدور المشيدة باللبن ان يمهد موضع الخراب فيبنى فوقه بناء جديد . وفي اغلب الاحيان كان البناء الجديد يتبع خطة الجدران القديمة ، ولاسيما اذا كان ذلك مسجداً ، فتبجيلا للاله لايجري اي تغيير كان . وعليه حين يحفر الباحث عن الآثار القديمة عن موضع قديم يعثر غالباً على بقايا عصور عديدة مبنية الواحد فوق الآخر . وتكون الطبقة السفلى هي القديمة عصراً . وعندما يزيح الطبقة الواحدة عن اختها ويدرسها ، ينكشف تاريخ الموضع شيئاً فشيئاً . وهكذا يجري الباحث في عمله عند تنقيبه حتى يأتي الى آخرها . واذا كان هناك قطع عمودي واقعاً في تل مرتفع ، فيدل ذلك بكل صراحة على نشوء مدينة وتعميرها الدائم في خلال ازمنة كثيرة . ويعرف كل زمن بما يمتاز به من الآجر وكسر الجرار التي تظهر في الطبقات المتتالية ، وتكون الطبقة التي في الاعلى هي الحديثة عهداً ؛ واما الطبقة السفلى فربما ترجع الى زمن فجر التاريخ .

القني القديمة

اضطر اهالي ارض الرافدين الادنى ، الى ان يعتمدوا في كل زمن الى الري لسقي حقولهم ، وذلك لان الامطار تهبط بقلة ، وحرارة القيظ شديدة يابسة ، وحفرت القني في تلك الاصقاع منذ القدم — لاسيما في ضفة الفرات اليسرى — ونقلت هذه القني الماء الى اقصى اراضي سهل شنعار ، تلك الاراضي المتقومة من تربة غنية خصبة . وكان اعتماد الشمريين على السقي في نجاح زرعهم اعتماداً تاماً بحيث كانت كل دويلة مدن على اهبة الحرب في كل حين لمقاومة مجاوريها اذا تحرشوا بما يلزمها من الماء أو قطعوا الماء عنها بتاتاً . وعليه اصبح تاريخ شمر بالاجمال قصة تقص نجاحاً متعاقباً وسلطة متبادلة بين عدد من دويلات المدن المحاربة بعضها لبعض .